

هوستن ستيوارت شميرلين

فيلسوف النازية الأول وصاحب رهرة الزعامة الألمانية

للأستاذ زكريا إبراهيم

جويدنو ، أخذت على عاتقها أن تقنع الألمان - وهؤلاء لم يكونوا في حاجة إلى إقناع طويل - بأنهم أرق الأجناس ، وأنهم أنقى سلالة من سلالات الآريين . ولم تكذب على اليوم الذي تأسست فيه هذه الجماعة خمسة أعوام ، حتى ظهر كتاب ضخيم يُمدُّ إنجيل «العنصرية» ، وهو كتاب «دعائم القرن التاسع عشر» « Die Grundlagen des Neunzehnten Jahrhundert »

للكتاب الإنجليزي هوستن ستيوارت شميرلين وقد وُلد شميرلين من أب إنجليزي كان ضابطاً كبيراً في الجيش ؛ ولكنه تأثر بالمؤثرات الألمانية ، فدفعه إيمانه بعظمة الجنس التيوتوني إلى أن يتخلى عن الجنسية الإنجليزية ، لكي يتجنس بالجنسية الألمانية . ولم يلبث أن اقترن بابنة ريتشارد فاغنر ، فأصبح بعد نفسه منذ ذلك الحين ألمانيا خالصاً ينحدر من أصل ألماني خالص ! وحينما نشر شميرلين كتابه الذي أودع فيه دفاعه الحار عن العنصر الجرمانى ، لقي هذا الكتاب رواجاً كبيراً ، وأثنى عليه كثير من النقاد ، حتى لقد قيل إن القيصر

لمل من غريب المصادفات أن يكون الرجل الذي وضع الأصول الأولى للفلسفة النازية ، رجلاً إنجليزياً ينتسب إلى أصل إنجليزي صريح . ولمل من غريب المصادفات أيضاً أن يكون الرجل الذي استمد منه فيلسوفنا هذه الأصول ، رجلاً فرنسياً لا يمتُّ إلى الأصل الألماني بأدنى سبب . فقد نشر الكاتب الفرنسي « آرثر دى جويدنو » كتابه عن « تفاوت الأجناس البشرية » (من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٧) وفيه أعلن سيادة العنصر الآرى على سائر العناصر ؛ فلم يكذب القرن التاسع عشر يشارف تمامه ، حتى تأسست في ألمانيا نفسها جماعة عرفت باسم « جماعة

المعنى لخضوعه للفظ وتبعيته له . فلا يمكن أن يكون الباقلاني أراد هذا . فإ تعليل الخلف ؟ لاشيء إلا أن كلتى « المعنى » « واللفظ » حلت إحداها لسبب ما محل الأخرى في الوصف . هذا هو أبسط تفسير ممكن . وإذن يجب أن تكون حقيقة الوصف هي « أن يكون اللفظ منتظماً دون المعنى » حتى ينطبق على أول القسمين اللذين قسم إليهما الباقلاني ما هو على هيئة السجع من الكلام

لننظر الآن في الإشارة الثانية إلى نفس القسمين . أشار الباقلاني إلى أحدهما بقوله « ومتى ارتبط المعنى بالسجع » وإلى الآخر بقوله « ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع » . فإلى أى القسمين ترجع كل من الإشارتين ؟ إن من الواضح أن الإشارة الثانية راجعة إلى القسم الثانى الذى يتبع اللفظ فيه المعنى ، وإذن تكون الإشارة الأولى راجعة إلى القسم الأول الذى يتبع المعنى فيه اللفظ ويكون للفظ فيه الاعتبار الأول . ليس عن ذلك محيص من هذا يتبين أن معنى قول الباقلاني « ومتى ارتبط المعنى بالسجع » أى متى جاء تاباً خاضعاً للسجع ، ومعنى قوله « ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع » أى متى جاء مستقلاً عن السجع

وجاء السجع تاباً له . لكن توجيه الأستاذ بدوى عكس الوضع ، وجعل ارتباط المعنى بالسجع معناه استلزامه السجع لأداء المعنى على وجهه ، أى أن اللفظ المسجوع جاء في هذه الحالة تاباً للمعنى ، فرد صدر الإشارة إلى القسم الثانى ، ورد آخرها إلى القسم الأول ، أى عكس ما يحتمه رد النظير إلى نظيره في كلام الباقلاني ومادام قد تبين أن ارتباط المعنى بالسجع هو تبعيته للفظ ، وجب أن يكون هذا هو المستجلب لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى ، وتكون فائدة السجع كفاءة غيره في حال ارتباط المعنى بنفسه واستقلاله عن اللفظ . ومن هنا التمدل الثانى الذى يقتضيه الاتساق ، ويقضى به رد النظائر بعضها إلى بعض ، من إحلال فعلى الشرطيتين - أو جوابيهما - كل محل الآخر على النحو السابق في السكامة التى كانت موضع نقد الأستاذ في هذا الجواب

وبعد فهذان طريقتان كل منهما يؤدي إلى وجوب تمديد النص المطبوع ليتسق كلام الإمام الباقلاني كله وتحيتي الخالصة وشكرى إلى الناقد الفضال .

محمد أحمد الغمداني

بنفسه كان يقرأ هذا الكتاب على أبنائه ؛ كما كان يقدمه لضباطه ويأمرهم بأن ينشروه خلال ألمانيا كلها . وحسبنا أن نأق نظرة على كتاب « كفاحي » الذي ألفه هتلر ، لكي ندرك إلى أي مدى أثر كتاب شميرلين في ألمانيا الحاضرة نفسها

والفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا الكتاب الضخم هي أن الحضارة الحديثة وليدة العمل الذي قام به التيوتون ، أعني أنها ثمرة للعمل الجرمانى الآرى . فالعنصر الجرمانى قد استطاع أن يمزج بين الحضارات المختلفة (من يونانية ورومانية وغيرها) وعن هذا المزج اجتمعت له مدنية قوية ، أقام على دعائها حضارة القرن التاسع عشر

وكما أن حضارتنا الحديثة ليست إلا ثمرة لذلك الامتزاج الذى تم بين الحضارات القديمة ، فكذلك التيوتون هم أيضاً ليسوا إلا ثمرة للامتزاج الذى حدث بين العناصر الجرمانية القديمة ، والسلافية ، والسلتية . وأنقى مزج لهذه العناصر الثلاثة هو ذلك الذى نجمه فى ألمانيا ، فلهذا كان الألمان هم الشعب المختار . وليس ثمة أمارات جسمية خاصة تميز الألمان ، فليس بلازم أن يكونوا طوال القامة ، أو زرق العيون ، أو بيض البشرة ؛ وإنما هم يتميزون بصفات خاصة لا تمت بأذى صلة إلى تلك الصفات الجسمية المزعومة : « فالألماني — كما يقول شميرلين — إنما هو ذلك الذى تدل أفعاله على أنه ألماني ، كائنًا ما كان الأصل الذى ينتسب إليه »

ولكن ، ما هى أظهر الصفات التى يتميز بها الطابع الألماني ؟ إنها ليست إلا الإيمان الراسخ بمبدأ الزعامة القدسة ؛ أعنى الخضوع للزعيم خضوعاً مطلقاً ، وطاعة أوامره طاعة عمياء . فلو وجدنا هذه الخصلة لدى الإيطاليين أو الفرنسيين ، فإنه يكون علينا أن نعتبر هؤلاء أيضاً ضمن التيوتون ، مهما كانت مواطنهم الأصلية التى ولدوا فيها . وعلى ذلك فإن الجنس هو خلق ، وليس دمًا أو وراثته . وإذا غير أحد نفعيته العنصرية racial psychology فإنه بذلك يكون قد غير أيضاً جنسه أو عنصره . « وليس أبسر على الإنسان من أن يصبح يهوديًا ... فإن جسمه فى هذا أن

يدى الاتصال بجماعة من اليهود ، وأن يقرأ الصحف اليهودية » بيد أن شميرلين يعود فيقول : « إن الرجل الذى ينتسب إلى جنس نقي خالص ، لا يمكن أن يفقد شعوره بالعنصر الذى ينتسب إليه مطلقاً . والسبب فى ذلك أن ثمة ملاكا أو حارسا بذكرة دائماً بعنصره ، ورافقه دائماً فى تنقله ؛ ويجذره حينما يهدده خطر الضلال ، ويجبره على الطاعة ، ويضطره إلى القيام بكثير من الأعمال الجليلة التى ما كان يجرؤ على القيام بها ... فالجنس (أو العنصر) يعل بالإنسان على نفسه ، ويعد بقوى غير عادية ، بل بقوى خارقة للطبيعة . وإنها حقيقة تظهرنا عليها التجربة الباهرة أن لنوع الجنس أهمية كبيرة ، وقيمة حيوية عظيمة » .

وإذا تأملنا فى هذه الأقوال المختلفة ، فإن من السهل علينا أن نرى كيف أن شميرلين قد وقع فى كثير من التناقضات . فهو أولاً قد قال إن الجرمان هم أرقى البشر ، لأنهم ثمرة لخير امتزاج تم بين « الأجناس النبيلة » ولكنه قال إن جلائل الأعمال إنما هى وقف على أهل « الأجناس النقية الخالصة » . ثم عاد بعد ذلك فقال إن من الممكن أن يتغير الجنس ، لا عن طريق امتزاج الدماء فحسب ، بل أيضاً عن طريق الاتصال الاجتماعى بشعوب ذات « عقلية بدائية » !

ولكن شميرلين لم يحفل بهذه التناقضات ، فإن ما كان يعنيه هو أن يجد أسطورة يحفل بها مبدأ العنصرية الذى يدعو إليه ، أما التوافق المنطقي ، فهذا ما لم يكن يعنيه فى كثير أو قليل والأجناس البشرية — فى نظر شميرلين — مختلفة أشد الاختلاف ، إن فى الخلق والصفات ، أو فى القوى والملاكات . وقد ترتب على هذا الاختلاف أن أصبح هناك جنس راق يتميز بصفات « فطرية » سامية ، وجنس منحط يتميز بصفات « فطرية » رضية . ومن بين الأجناس المنحطة التى تنتسب إلى النوع الأخير (فيما يرى شميرلين) الجنس « اليهودى »

فاليهود هم الشعب الذى لم يستطع يوماً أن يعيش على وفاق مع أى شعب آخر ، ومن أجل ذلك فقد ظلوا دائماً أبداً « شعباً غريباً أجنبياً بين كل الشعوب » . ولقد استجاب الأوروبيون

ليس مجرد متعة أو ألوية ، بل هو أمر جدى له قيمته فى الشعور بالحياة الحافلة الخصبة المليئة . فكل من جويو ويتشبه بنظر إلى الفن نظرة حيوية ، ولا يمدده عديم الغاية بل يذهب إلى أن الفن للحياة وبالحياة . ومعنى هذا أن الفن عندها ليس للفن — كما يقال عادة — بل هو غاى ، وغايته ليست تقويم الأخلاق أو إصلاح الناس ، بل تقوية الشعور بالحياة

وأما النواحي التى يختلف فيها جويو مع نيتشه فهى تلك التى تسمى مشكلة « الفردية » ؛ وذلك لأن جويو يعتقد أن الرجل القوى ليس هو الرجل المتوحد (كما يزعم نيتشه) بل هو الرجل الذى يجمعه بغيره من الناس ، وشأن العقل والقلب . فعلى الرغم من أن جويو يتفق مع نيتشه فى القول بالحياة الخصبة المليئة ، إلا أنه يتصور هذه الحياة على أنها أولاً وبالغيات ، حياة اجتماعية تعتمد فيها الأنانية ، لأن الأنانية سلب للحياة نفسها ، وإنكار لكل خصب أو امتلاء . . ولعل خير ما يوضح لنا الفارق بين نيتشه وجويو ، هو أن الأول يدعونا إلى اتباع الطبيعة (كما دعا إلى ذلك الأقدمون) ، فى حين أن الثانى يدعونا إلى تعميق الطبيعة . فنيتشه يقول : « اتبع الطبيعة » *Suivez la nature* ، وأما جويو فإنه يقول : « عمق الطبيعة » *Approfondissez la nature* : ومهما يكن من شئ ، فإن جويو هو بلا ريب واحد من أولئك الرواد الذين سبّقوا نيتشه فى الطريق الذى سلكه . وقد رأينا أن هؤلاء الرواد كثيرون ؛ فهل علينا من حرج بمد هذا إذا قلنا إن السبيل الذى سلكه نيتشه سبيل مطروق ؟

رَكِبَا إِبْرَاهِيمَ

(المولى)

مدرس بمدرسة السويس الثانوية

شعاب قلب

مجموعة من القصص التحليلية بقلم الاستاذ

هبيب الزمرهوى

يطلب من الناشر مصطفى الحلي وأولاده

والفنى ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد

لداعى المحبة والصداقة ، ففتحوا الأبواب أمام اليهود ؛ وعندئذ لم يلبث اليهود أن اندفعوا كما يندفع العدو المنتصر ، فاكتمسحوا كل المناصب ، واستلبوا جميع المراكز ، ثم رفعوا من بعد أعلامهم التى هى غريبة عنا كل الغريبة ... وأينما تركت القوة لليهود ، فأنهم لا يبدأن يسيئوا استعمالها ... أليس اليهود هم ذلك الشعب الذى جمات منه طبيعته جنساً ميالاً إلى الربا والطمع ، فى حين أن شريعة موسى تحرم الربا تحريماً قاطعاً ؟ ... « إن اليهودى لهو من الكراهية إلى الرجل الأوروبى ، بحيث أن الأطفال الصغار الذين لم تؤثر الحضارة بعد فى نفوسهم ليقدر أن يشموا رائحة اليهودى عن بُعد ! »

هذه هى الأفكار الرئيسية فى مذهب شامبرلين ، ولنا فى حاجة إلى أن نبين للقارى ما فيها من أخطاء علمية ، وأغلاط تاريخية ؛ وإنما الذى نريد أن نلفت نظر القارىء إليه ، هو أن قوة الفكرة لا ترجع إلى صدقها أو مطابقتها للواقع ، وإنما ترجع إلى ما فيها من قدرة على التأثير . وكثيراً ما تكون الفكرة الخاطئة نفسها ، قوة كبيرة توجه شعوباً بأكملها فتقاد لسحرها فى حماسة وقوة ، دون أن تدرك ما فيها من خطأ ، وما يشوبها من العناصر الأسطورية . بمضيق يتفق مع ما ذهب إليه نيتشه اتفاقاً كبيراً حتى إنه ليصعب علينا أن نتصور أن يكون نيتشه لم يطلع على ما جاء فيها . ومما يتفق فيه لفيلسوفان :

أولاً : القول بأن « الحياة هى الكل » *tout est vie* بمعنى أنه ليس فى وسعنا أن نتصور شيئاً ما على أنه موجود حقيقة إلا إذا كان هذا الشئ حياً .

وثانياً : القول بأن الأخلاق التى تنادى بفكرة الواجب والأمر المطلق ، أخلاق فاسدة يجب القضاء عليها ، لأن الإلزام أو التكليف يرجع إلى الحياة نفسها ، إذ الحياة هى التى توفر للفرد الشعور بالقدرة على العمل ، وليس هناك قوة سحرية غريبة « كالأمر المطلق » المزعوم

وثالثاً : القول بأن التشاؤم يدعو إلى الانحلال والفناء ، فى حين أن التفاؤل يكسب الحياة خصباً وامتلاءً ، فكل من جويو ونيتشه يعتبر التشاؤم مظهراً للانحلال والهبوط والفناء ...

رابعاً : القول بأن الفن هو المعنى الباطن للحياة بمعنى أنه